الدراسة بين يدي
تحقيق المخطوط

أهميتها ومقوماتها

د. أحمد بن فارس السلوم

شبكة الألوكة
www.alukah.net

الدِّراسة بين يدي تحقيق المخطوط

أهميتها ومقوِّماتها

أُخذت «الدراسة» من قولهم: «دَرس الكتاب يدرُسه –بالضم وبالكسر– درسًا ودِراسة» أي: قرأه، وكرَّر قراءته حتى انقاد له حفظه، وسهل عليه، وذلك أنَّ الأصل مأخوذ من قولهم: درست الريحُ الربعَ دَرسًا: إذا تكررت عليه فعفَّته.

ويمكن تعريف دراسة المخطوط بأنَّها: «**بحثٌ في ترجمة المؤلف ومعرفة مسائل المخطوط ومعارفه الرئيسية مقارنةً ونقدًا**».

فـ«البحث» معروف، وفيه: معنى بذل الجهد في الموضوع المراد الكتابة فيه واستثارته، و«ترجمة المؤلف»: أي سيرة مؤلف المخطوط العلمية، و«مسائل المخطوط ومعارفه» هي: أهم ما ذكر المؤلِّف في المخطوط من مفردات علمية، وما تميز به المخطوط، و«المقارنة والنقد» بيان لأهم مناهج الدراسة، ولكنها ليست كل مناهج الدراسة، فقد تكون كذلك شرحًا وتفسيرًا، وذلك فيما يخص المصطلحات والمفاهيم مثلاً، والدراسة تشتمل على هذا وذاك في الغالب.

والدارس للمخطوط هو الذي يقوم بهذا البحث، ووفقًا لعناصر الدراسة –التي سنذكرها– فالدَّارس: باحِثٌ ومؤلِّف، يعدُّ كتابًا حول المخطوط الذي يحققه، ولذا فإنَّ الدراسة باختصار: «**هي كتاب بين يدي كتاب**».

أهمية الدراسة بين يدي تحقيق المخطوط:

الدراسة بين يدي التحقيق من الأهمية بمكان، ذلك لأنها تجلي محاسن المخطوط وتبرز مميزاته، وتقوِّم عمل مؤلف المخطوط، وتنبه على الأوهام والأخطاء التي وقع فيها، فكم من مخطوط لم تُعرف قيمته إلاَّ من خلال دراسة المحقِّق، وفي المقابل كم من مخطوط ذهبت بهجته، وقلَّ الانتفاع منه لخلوه من دراسة تقربه للقارئ، وتعرف الناس به.

ولأجل ذلك فإني أقول: **إنَّ أعظم ما يقدمه المحقِّق لمؤلَّف المخطوط هو دراسة علمية عنه وعن محتوى المخطوط**، وإنني أحثُّ الجامعات والمؤسسات العلمية على توجيه الباحثين في المراحل المختلفة إلى دراسة وتحقيق التراث، بشرط اختيار المخطوط المناسب للمرحلة، فإنَّ الدراسة والتحقيق تشتمل على الهدفين الرئيسين من رسائل الدراسات العُليا، وهما:

١-«البحث والتأليف».

٢-و«تصحيح النصوص وتحقيقها».

وهاتان مهارتان عزيزتان؛ يحتاجهما طالب العلم والباحث في العلوم الشرعية، ولا يتحققان في «البحث التكميلي»، أو «الرسالة» الخالية من تحقيق المخطوطات، أو في تحقيق المخطوط المجرد من الدراسة.

مُقوِّمات الدراسة:

نريد بالمقومات: «**العناصر الأساسية التي تسهم في قيام الدراسة، واستوائها على سوقها، مما يكسب التحقيقَ قيمةً علمية**».

وغالبًا ما تكون الدراسة قائمة على عنصرين أساسيين:

الأول: دراسة المؤلِّف.

والثاني: دراسة المخطوط.

وتحت كل عنصر نقاط مهمة سنأتي على ذكرها بالتفصيل:

أولاً: دراسة المؤلِّف.

ونعني بها: «ترجمة المؤلف»، وتختلف عناصر ترجمة المؤلف من مؤلف لآخر، بحسب شهرته وتوفر مصادر ترجمته، وبحسب الدراسات السابقة المعتنية بسيرته.

فقد يُكتفى أحيانًا بـ «تذكرة بالمؤلف» إذا كان من الشهرة بحيث إنه لا يخفى، وإذا كانت الدراسات عنه كثيرة، أو كان ممن ترجم نفسه، كالإمام أحمد والبخاري والطحاوي والجويني والغزالي والقرطبي والذهبي وابن تيمية وابن حجر والسيوطي، إلاَّ أنْ يروم الدارس تحقيق شيء في حياته؛ إما إثبات زيادة وقف عليها، أو تصحيح خطأ في الترجمة جرى عليه الناس، أو تحقيق مفيد في مسيرته العلمية، أو بيان لمغلق لم يسبق إليه.

ومهما كان ذلك –ترجمةً أو تذكرةً– فإنَّ عناصرها خمسة، لا بد من تحقيقها بصورةٍ ما في سيرة المؤلف:

١–اسمه، وفيه: ذكر نسبه وكنيته وأصله ومحتده.

٢–مولده ووفاته، وفيه: تعريج على نشأته وموطنه.

٣–شيوخه، وفيه: بيان رحلته وطلبه للعلم.

٤–تلاميذه، وفيه: بيان أثره في العلوم ومؤلفاته فيها.

٥–مكانته، وفيه: ذكر التعديل والتجريح، والثناء والقدح.

وكل ذلك يذكره الدارس مُحققًا، مُميِّزًا بين صحيحه وضعيفه، ناسبًا النقولات إلى مصادرها، ويفرق بينها وبين ما لخصه واستنبطه منها.

وهذا الشق من الدراسة ليس هيِّنًا كما يظنه بعض الناس، فإنَّ **كتابة السير فنٌّ قلَّ من يتقنه**، والقارئ اللبيب يفرق بين الخبير في صياغة السير وبين الناقل بلا تحبير، **وأقل مراتبها**: ترتيب الترجمة من مصادرها باتساق، **وأعلى ذلك**: تحقيق ما فيها مما يحتاج إلى تحقيق، ورسم صورة كاملة عن سيرة العَلَم، حتى كأن القارئ يشعر بأنفاس المترجَم، يصبحه في رحلاته، ويجالسه في خلواته، وذلك سر «الذهبي» لمن اطلع عليه.

وأمَّا نسخ الترجمة من مصدر واحد –بعجرها وبجرها– فليس من الدراسة في شيء.

وقد يزيد بعض الباحثين: «**دراسة الحالة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية**» لزمان المؤلف، وهذا -في نظري- فضلٌ وزيادة، إن أتى به الدارس فحسن، وإلا فلا غضاضة بتركه، لكن مما يكره للدارس الإطالة في هذا الجانب، كي لا يخرج بالدراسة إلى الجانب التاريخي الوصفي.

وفيما يلي نموذجان لدراسة المؤلفين أقدمهما للدارسين مع بيان مبرر كل نقطة من نقاط الترجمة ليقارن بينهما:

الأول: دراسة حياة مؤلف كتاب: «فضائل القرآن»، وهو الحافظ المستغفري (ت:٤٣٢)، حيث جاءت الدراسة في القسم الذي خُصص لدراسة المؤلف على النحو التالي:

١-أسرتُه (والمبرر لذلك: أن المؤلف من أسرة علمية عريقة في بلده ولم يكن أول النابهين بها ولا آخرهم).

٢-اسمه ونسبه (وفيه بينت معاني الأنساب التي تذكر في ترجمته، ومن استحقها من أجداده أولاً، وهي: المستغفري، النسفي، النخشبي، المطوعي، الجلاب).

٣-مولده ونشأته (وفيه رسمت خطة لطلبه العلم في بلده الذي نشأ فيه استنتجتها استنتاجا من كتب التراجم).

٤-رحلته في طلب العلم (وفيه حررت الأمصار التي دخلها، معتمدا على معرفة شيوخه وتاريخ روايته عنهم، وبينت فيه بطلان الحديث المنسوب إليه المسمى: الحديث الحسن، لأن واضعه يزعم أن المستغفري سمعه في مصر، في حين أن المستغفري لم يبلغ بغداد أصلاً، وهذا المبحث استنبطته ولم أسبق إليه).

٥-شيوخه (وفيه اقتصرت على أهم شيوخه وأعلاهم سندًا وأكثرهم رواية، ومن أراد استقصاءهم أحلته إلى فهرسهم الذي وضعته آخر الكتاب).

٦-ثناء العلماء عليه (وفيه ذكر توثيقه عن العلماء والنقاد).

٧-ما أُخذ عليه (وفيه ذكرت جانبا انتقد فيه المؤلف، وهو رواية الحديث الضعيف بإسناده دون أن يبين ذلك، وفي هذا المبحث أنصفته، فذكرت قول المنتَقد ثم اعتذرت عن المصنف، واستكملت له العذر بأن بينت درجة كل حديث ورواية في كتابه).

٨-مذهبه في الإجازة (وهذا مبحث ألحقته في الترجمة لأنه يتعلق بالمخطوط من جهتين: الأولى جهة المؤلف حيث كان له مذهب خاص فيها، وجهة الكتاب أيضا حيث إنه روى فيه بالإجازة، فاحتجنا لتفصيل القول في هذه المسألة، وسواء ألحقتها بدراسة المؤلف أو دراسة الكتاب).

٩-الرواة عنه (وفيه حاولت استقصاء ذكر الرواة عنه، حيث لم يسبق أن جمعوا في كتاب واحد).

١٠-كلام المستغفري في الرجال (والذي دعاني لذكر هذا العنوان أمران: بيان مكانته في الجرح والتعديل، حيث إنه ممن يعتمد قوله في الجرح والتعديل، وفي هذا بيان لمكانته العلمية، والثاني استكمال العذر له في المبحث الذي ذكرت بعض مآخذ العلماء عليه).

١١-مؤلفاته (وفيها كذلك بيان محرر عن الكتب المنسوبة إليه وهو منها براء).

فهذه عناصر ترجمة المستغفري أوجب بعضَ عناصرها خصوصيتُه بها، فلا تصلح لغيره، وذكرت الترجمة في أول كتاب حققته له، وهو «فضائل القرآن»، ولم أعد الترجمة في تحقيق «دلائل النبوة» ولا في «طب النبي صلى الله عليه وسلم» وأحلت للموضع الأول طلبًا للاختصار.

الثاني: دراسة حياة مؤلِّف كتاب: «قيد الأوابد من الفوائد والعوائد والزوائد» وهو: عبدالملك العصامي (ت:١١١١)، وبين وفاة هذا المؤلف والمؤلف الأول نحو: ٦٧٩ سنة، وهي فترة زمنية طويلة، تختلف فيها مصادر التراجم وعناصرها، ولذا اخترت هذه الترجمة نموذجًا آخر:

جاءت عناصر ترجمة عبدالملك العصامي على النحو التالي:

١-مقدمة (ذكرت فيها مصادر الترجمة، حيث إن مصادر ترجمة المتأخرين من أهل القرن الثاني عشر قليلة، فأحصيت المصادر التي عدت إليها ومنها المطبوع والمخطوط).

٢-اسمه ونسبه (وبينت فيها سبب النسبة).

٣-ولادته ووفاته (لم أزد على ذكر التاريخ، حيث إنني لم أقف على شيء من أخبار نشأته).

٤-شيوخه (وقد قسمتهم إلى قسمين، شيوخ ذكرهم في الكتاب الذي حققته، وشيوخ ذكرهم في غيره من كتبه).

٥-ثناء العلماء عليه.

٦-مؤلفاته (وفيه حررت أسماء مؤلفاته وميزت ما نسب خطأ إليه وهو لجده الذي يشترك معه في الاسم والنسب).

٧-شعره وأدبه (ومبرر ذكر ذلك أن المصنف أديب ذواقة، وله عناية بالبلاغة القرآنية).

٨-عائلة المصنف (وجدت أن المؤلف ينتمي إلى أسرة علمية عريقة، تبدأ بالشيخ أبي إسحاق الشيرازي -فيما قيل- وتنتهي إليه).

ولم أذكر في الترجمة: تلاميذه، إذ لم أجد ذكرا لهم.

فانظر كيف اختلفت عناصر الترجمة من مؤلف لآخر.

خُطوات بِناء «دراسة المؤلِّف»:

الطريقة المقترحة لتفريع مباحث ترجمة المؤلفين تتلخص في ثلاث خطوات:

الخطوة الأولى: قراءة سيرة المؤلِّف في مصادر عدة، والتركيز على نقاط القوة والضعف فيها.

الخطوة الثانية: تطبيق مفردات الترجمة على العناصر الخمسة التي ذكرناها آنفًا، فيذكر أمام كل عنصر من العناصر الخمسة ما قد يندرج تحته مما وقف عليه، ويكتب الإحالة إلى المصدر كي لا ينساها مع تقادم العهد.

الخطوة الثالثة: صياغة الترجمة بأسلوب مناسب، وترتيب متناسق، مع المحافظة على طابع التحقيق والتوثيق.

ثانيًا: دراسة المخطوط.

وهذا الشق هو لُباب الدراسة، والغاية منها، ويختلف من كتاب لآخر، والقاعدة في ذلك تتلخص في دراسة ثلاثة أمور:

- الأول: مسائل المخطوط.
- الثاني: قيمة المخطوط.
- الثالث: توثيق المخطوط.

أما مسائل المخطوط: فهو جواب ما يسميه بعضهم «مشكلة البحث» -وهو مصطلح أكاديمي لا أجد غضاضة في استعماله لكثرة دَوره على الألسنة- فأريد بمسائل المخطوط: بيان مسائله التي حررها -وتكون في الغالب هي السبب الباعث للمحقق للاعتناء بالمخطوط- وقد يكون فيها مسألة كبرى هي أساس المخطوط فلا بأس بعقد مبحث لها على حياله، يناقش فيه هذه المسألة ويقارن بين قول المؤلف وقول غيره، ويرجح، ولو رجح غير رأي المؤلف فلا ضير في ذلك، ولا يشين ذلك تحقيقه، -ولا يقال: المحقق في واد والمصنف في واد آخر-، ويكتفي بهذه الدراسة السابقة عن التعليق في أثناء المخطوط، بل يحيل في الهامش إلى الدراسة، وفي مسائل المخطوط يدرس مفاهيم ومصطلحات المخطوط، وذلك من الأهمية بمكان، ويبين موافقتها أو مخالفتها للشائع المعروف.

وأما قيمة المخطوط: فبيان مكانته في العلم الذي ينتمي إليه، وما فيه من إضافات، وأثره على من جاء بعده، وقد يحتاج في ذلك إلى التعريج على العلم الأصل الذي ينتمي إليه المخطوط، وبيان مصادره ومنهج المؤلف فيه.

وأما توثيق المخطوط: فالمقصود منها صيانته، وضبطه، وتحرير بطاقته، فيذكر فيه: اسم المخطوط، وناسخه وتاريخه وخطه ومسطرته، وعدد ورقه ومصدره، وما إلى ذلك، مما يستحب كثير من المحققين ختمه بصور من الأصول المعتمدة.

وأهم ذلك: أسانيد النسخة وسماعاتها، التي هي نَسب هذه النسخة، ثم المفاضلة الدقيقة بين النسخ والأصول المعتمدة، فيقدم ما حقه التقديم، ويؤخر ما حقه التأخير، فليس كل نسخة لها قيمة، وكم من نسخة مزورة، وأخرى محرفة عديمة الفائدة.

وفي تحقيق هذه الأمور الثلاثة يحتاج المحقق إلى عقد مباحث كثيرة ليستوي جوانبها، والجزآن الأولان من هذه الدراسة لا يقوم بهما إلاَّ مختص في العلم الذي ينتمي إليه المخطوط، وأما الاقتصار في دراسة المخطوط على عناصر بعينها من قبيل: تحقيق عنوان الكتاب، ونسبته لمؤلفه ووصف النسخ الخطية وما شابه ذلك، دون التعريج على ما ذكرنا، **فتلك دراسة من لم يكن من أهل الاختصاص**.

خطوات بناء دراسة المخطوط:

يمكن تلخيص خطوات بناء دراسة المخطوط في ثلاث خطوات:

الخطوة الأولى: في طريق دراسة المخطوط مأخوذة من المعنى اللغوي لـ«الدراسة»، وهي: تكرار قراءة المخطوط مرة بعد مرة، حتى يحيط المحقق علمًا بمباحثه ومسائله الكبار، فهذه «المدارسة» بينه وبين «المؤلِّف» و«المسامرة» بينه وبين «المؤلَّف» ستفتح له آفاق الدراسة التي سيكتبها، وتحدد له معالمها.

ولذا كان بعض المحققين يجعل الدراسة آخر مراحل تحقيق المخطوط.

الخطوة الثانية: تقييد أهم ما وقف عليه -مما يظنُّ المحقق أنه يحتاج إلى إبراز- في قصاصات من الورق يدوِّن فيها اسم المسألة، ورأي المؤلف فيها، ومن هذا القبيل تقييد المصادر والموارد، والهنات التي يظن المحقق للوهلة الأولى أن فيها ما فيها.

الخطوة الثالثة: مراجعة هذه المسائل على أمّات مراجعها، لينظر الموافقة والمخالفة بين المؤلِّف وبين أصحاب الاختصاص ممن كتب في الموضوع نفسه، ومن ثم كتابتها بترتيب متناسق، يراعى فيه مناسبة العناصر لبعضها البعض.

التقسيم العلمي لعناصر الدراسة:

هذه مسألة يُسأل عنها كثيرًا، وهي كيف أقسم الدراسة إلى عناصر، وما هو المستحب؟ هل الأفضل تقسيمها إلى: أبواب أم فصول أم ماذا؟

والجواب: أنَّ تقسيم عناصر الدراسة من المحسنات الجمالية للبحث، وهي من ذوقيات الباحث، والأمر فيها واسع جدًا، ولو قسم الكتاب كله إلى قسمين: القسم الأول الدراسة، والقسم الثاني: النص المحقق فحسن، ولو تركه بدون تقسيم فلا ضير، ويكتفي بالعنوان في أعلى الصفحة.

ولكن هذا التقسيم قد يخضع لضوابط معينة بحسب الجهة التي تقدم لها الدراسة والتحقيق، فمثلاً: الدراسات المقدمة إلى جامعات ومؤسسات علمية قد تفرض تقسيمًا معينًا، من هذه الجهات من يشترط تقسيم الدراسة إلى أبواب، ثم فصول، ثم مباحث، وذلك في مرحلة الدكتوراه، وأما في مرحلة الماجستير فيكتفون بالتقسيم إلى فصول ثم مباحث، والأمر في ذلك واسع.

وهذان نموذجان مختلفان من نماذج الدراسات، للاعتبار بهما ومقارنتهما ببعضهما البعض، حيث إن كل كتاب يفرض نمطه الخاص به من الدراسات:

الأول: دراسة أعددتها بين يدي تحقيق كتاب «معرفة علوم الحديث وكميَّة أجناسه» لأبي عبدالله الحاكم (ت:٤٠٥)، جاءت الدراسة على النحو التالي:

١-الحاكم أول من صنف في علوم الحديث (حاولت إثبات ذلك بمعطيات علمية)

٢-بين الحاكم والرامهرمزي (قارنت بين معرفة علوم الحديث والمحدث الفاصل)

٣-بين الحاكم وابن الصلاح (بينت فيه اعتماد ابن الصلاح الكبير على كتاب الحاكم، والأنواع التي في المعرفة وليست في المقدمة والتي في المقدمة وليست في المعرفة).

٤-شهرة الكتاب بين الناس (بينت فيه مكانة هذا الكتاب).

٥-مصادر الحاكم في المعرفة.

٦-تعليقات الحفاظ على المعرفة (فذكرت حاشية الساجي وابن الصلاح).

٧-ثم الأصول المعتمدة، (وبينت أن الطبعة هذه مقابلة على ٤ روايات مختلفة، وهي رواية ابن خلف الأديب، والثغري، والبحيري، والأردستاني).

٨-رواية ابن خلف الشيرازي عن الحاكم (وتكلمت فيها عن نسخها وفاضلت بينها) ثم باقي الروايات، ثم عرفت برموز الكتاب، وختمت بصور الأصول، فكانت الدراسة في ١٠٦ صفحات.

ومن الدراسة الفهارس التي أعددتها للكتاب، وهي: فهرس الآيات، ثم الأحاديث، ثم شيوخ المصنف، ثم فهرس الثقات الذين ذكرهم المصنف، وهذا بمثابة كتاب: ثقات الحاكم، ثم فهرس الرواة الذين لم يخرجوا في الصحيح ولم يسقطوا، ثم فهرس جامع.

النموذج الثاني: دراسة أعددتها بين يدي تحقيق كتاب: «طب النبي صلى الله عليه وسلم» للمستغفري (ت:٤٣٢) -ولاحظ الفرق بين الدراستين لاختلاف الموضعين، واختلاف أهميتهما-.

١-مقدمة في تعريف علم الطب (ذكرت فيها تعريف الطب والطبيب وأصول المداواة).

٢- الطب النبوي (عرفت به وبينت حكمه، وكيفية الاستفادة منه، وأصول الطب النبوي).

٣-التعريف بالمخطوط، وفيه: اسم المخطوط، تاريخ نسخه، الناسخ، إسناد النسخة، مصدرها، ثم المنهج في التحقيق.

٤-تنبيه: حول براءة المصنف من رسالة طبعة قديما باسم: «طب النبي صلى الله عليه وسلم، المنسوب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، المستخرج من أحاديثه بحذف الأسانيد».

وكانت هذه العناصر الأربعة كافية بنظري لدراسة المخطوط، ومن دراسته الفهارس التي أعددتها له، وهيك فهرس شيوخ المصنف وأرقام مروياتهم، وفهرس الأحاديث والآثار، وفهرس المواضيع.

وبعد:

إذا قررنا أنَّ الدراسة هي «**كتاب بين يدي كتاب**» فإن بعض الدراسات يمكن طباعتها وتقديمها للقراء من دون تحقيق النص المخطوط، لكن حينها يكون عنوان البحث: دراسة عن مخطوط كذا وكذا وعن مؤلفه، وليس: دراسة وتحقيق!.

هذا الكتاب منشور في